ماركس ـ العقدة والحل

كان امرا طبيعيا للغاية ان طالبا فلسطينيا في مدرسة ثانوية نصراوية يعتبر نفسه مشروعا حقيقيا لشاعر طليعي وسياسي ثائر، يتلقف بلهفة صارمة كل ما يبدو له هاما وضروريا من أجل تحديد مساره الشخصي في تيار العمل النضالي لصالح قضيته المحرقة وضد اعداء شعبه ووطنه.

في اواسط الخمسينات كنت انا ذلك الطالب او واحدا من هؤلاء الطلاب. انذاك لم اقرأ "رأس المال". اتيح لي ان اقرأ تلخيصا للكتاب بدا لي معقدا انذاك وبقدر ما انكر فان مفكرا باسم الدكتور مصطفى هيكل هو الذي وضع ذلك التلخيص.

بيد ان قوة الجذب الهائلة بالنسبة لي آنذاك تركزت بشكل يكاد يكون دينيا، في الظاهرة العملاقة التي اوقفت الانسان العربي على ساقين قويتين فوق ارض صلبة في تلك المرحلة المفعمة بالحماس والحلم، اعني ظاهرة جمال عبد الناصر. واعترف ان قامة الرجل امتدت امامي من المحيط الى الخليج ومن الارض الى السماء الامر الذي حجب عن عيني لسنوات اي افق بديل واية رغبة في اكتشاف افق بديل. الا ان مطالعتي في اعمال اعمدة الماركسية لم تنقطع تماما واذكر ان اعجابي كان منصبا بدرجة اولى على فريدريك انجلز. لماذا؟ ربما لانه

اقل صخبا وكلاما من زملائه، وربما لانه كان نقيض ظروفه بقدر هائل. ويجب ان يكون اعترافي كاملا فاسجل ان العنصر اليهودي في شخصية كارل ماركس عرقل الى حد ما، وربما الى حد كبير، عملية التفاعل بيني وبين اعماله. كان هناك شيء من الشك وفيما بعد حين قرأت مقولة ماركس عن الشك العلمي ادركت مدى الخطأ الذي ورطتني فيه مشاعري رغم صدقها وعفويتها وبراءتها.

لم تكن الاشتراكية بالنسبة لي "فكرة ناصرية". لم تفاجئني الدعوات التي تفجرت انذاك الى الاشتراكية العربية والاشتراكية الاسلامية، فان تكويني النفسي والذهني والثقافي بكشل عام كان مشحونا بارواح علي وعمر وابي ذر الغفارى، وكان السبيل معدا ومضاءا امام الانسان العظيم ابي ذر الغفاري ليملاء وجداني حتى يومي هذا، وذلك لسببين أكيدين: اولهما تجربة الغفاري المذهلة على المستويين الشخصي والعام. وثانيهما، المكانةالدينية الخاصة التي يشغلها الغفاري في مذهب التوحيد (المذهب الدرزي) الذي تنتمي اليه اسرتي. ورغم ابتعاد اسرتي عن التعصب الديني فلا شك في أن أثرا من الجو الاسطوري الميتافيزي الديني ترسب عميقا في النفس وأسهم في احاطة الغفاري بهالته الخاصة. لقد قرأت كل ما كتب عن الغفاري او معظمه.. وما زالت تدهشني الحالة التي تصيبني لدى قراءة اي نص حول هذا الرجل.. حالة الحلم والصفاء الى درجة البكاء والبكاء المر احيانا

ما كان من المعقول ان يستمر المرء في مثل هذه الغيبوبة المثالية. فالزمن الاحداث وصروف الدهر كما يقولون، لا يمكن الا ان تفرض نفسها هي الاخرى. ويبدو انني كنت مهيأ للانتقال الى ما اصطلح على تسميته بالمرحلة الارقى او الاعلى. وكانت صاعقة

الخامس من حزيران ١٩٦٧ هي المفجر الكبير لبركان الروح والعقل وكان علي ان اختار بين كهف الصوفي وبين خندق جديد للمقاتل. وكان ماركس قريبا جدا ولم يحجبه عن عيني اية صورة عملاقة لان زنازين السجون الاسرائيلية الضيقة لا تتسع للاوهام العريضة الشاهقة. وفي احد هذه السجون اعلنت قناعتي الماركسية.

في اثناء عملي محررا لمجلة "الجديد" صدف ان وقع بين يدي عدد من مجلة "الطريق" وكان هناك نص جديد بالنسبة لي، من اعمال كارل ماركس وكان حول موضوع "الاستنكافية" واعجبت بالنص واعدت نشره كاملا في الجديد. ثم اتيحت لي الدراسة في موسكو وتعمقت علاقتي بالنصوص الماركسية لا سيما "رأس المال".

كما تلاحظ ايها الرفيق العزيز محمد دكروب، فقد تكررت كلمة الاعتراف في رسالتي هذه اكثر من مرة. واسمح لي ان اضيف اعترافا اخر لتبرئة ضميري ازاءك وازاء ماركس وازاء نفسي: في السنوات الاخيرة، وعلى ضوء مجريات الامور في عدد من الاقطار الاشتراكية، وعلى ضوء صيغ التفاعل العالمي مع مأساتي الفلسطينية فقد اخذت تشغلني بضع مراجعات وتساؤلات حول العلاقة الجدلية بين الماركسية في النظرية والتطبيق. ولعل بعضا من هذه المراجعات والتساؤلات حول ظواهر الثورة الثقافية في الصين وتقديس الشخصية في رومانيا وكوريا والانعزالية في البانيا والجمود العقائدي والطفيلية والانتهازية والتحريفية التي اسهمت في بروز ظاهرة ليخ فاليسا، اصبحت هما كابوسيا بالنسبة لي ومست باليقينية الجارفة التي تولد (او يولدها) الحماس البريء الى حد السذاجة احيانا.

في هذه الايام تبرز مرة اخرى مسألة "الشك العلمي" في قضايا عدة حول الحزب الشيوعي المعارض والحزب الشيوعي الحاكم، الحركة

الشيوعية واسرائيل، الحركة الشيوعية والعالم الرأسمالي، الحركة الشيوعية وحركات التحرر القومي، ثم قضية العلاقات داخل الحركه الشيوعية ذاتها. فحالة التشتت التي جعلت اكبر دولة شيوعية (الصين) حليفا موضوعيا لاكبر اعداء الشيوعية (الولايات المتحدة). "وحيادية" رومانيا "ولا مبالاة" البانيا والتفاوت داخل الاحزاب الشيوعية في العالم الرأسمالي كل ذلك يستدعي ما يمكن ان نسميه عملية اعادة نظر شاملة او عملية ترميم تاريخية.

عوضا عن مؤتمرات البحث والتنسيق في الشؤون الاقتصادية والسياسية الدولية فان حركتنا بحاجة ماسة للغاية الى مؤتمرات النقد والنقد الذاتي على المستويين الايديولوجي والتطبيقي. ان كنس الغبار تحت السجادة كما يقول المثل، لا يمكن ان يلغي الضرورة الملحة لعمليات جرد الحساب الجريء والمخلص والثوري فعلا.

قد يأخذ البعض من اخطار العدو الامبيريالي الرأسمالي ذريعة لكم الافواه بحجة المسؤولية المرحلية. بيد إن المسؤولية المرحلية مرتبطة عضويا بالمسؤولية التاريخية ولا يجوز التغاضي عن اي خلل مرئي او شرخ عميق في النموذج الاشتراكي العلمي المطروح منذ عقود كبديل وحيد امام الجنس البشري.

إن البديل الماركسي هو بحق البديل الوحيد، وحتى يظل بديلا وحيدا بحق، فاننا مدعوون الى اقصى درجات الجرأة والمسؤولية في المراجعة والمتابعة وتطوير الذات بما يكفل تغيير العالم -هدفنا الانساني الثوري العظيم.

«مداخلة خاصة بمجلة "الطريق" ١٩٨٤»